(٥)

محمد الله وآدم الله
للناس قدوة وأسوة
وللعالمين حياة ورحمة

حديث الجمعة

٧ ربيع الأول ١٣٨١ هـ - ١٨ أغسطس ١٩٦١ م

إلى محمد الله، إلى من أخرجه الله قدوة وأسوة، إلى من بعث بربه رسول رحمة، إلى عين رحمة الله، إلى رسول أنفسنا من الله، إلى عقولنا مكلفة، ونفوسنا مزكاة، إلى روح أرواحنا منطلقة ومعفاة، إلى مفتاح الحياة وباب الحياة ووسيلة الحياة، إلى سفينة النجاة، إلى طريق الاستقامة والموالاة، إلى باب الله ووجه الله، إلى يد الله وذكر الله، إلى عبد الله وابن عبد الله وأبي عبد الله، إلى آدم الله وإنسان الله، إلى من استخلفه الله وأحياه ونفخ فيه من روحه فأبقاه، وبعثه رحمة فأرضاه، وأضافه إلى نفسه فأسعده وتولاه، إلى رسول الله لرسل الله، إلى رسول الله لعباد الله، إلى رسول الله لخلق الله، إلى رسول الله لعوالم الله، إلى رسول الحياة إلى الحياة .

إليه.. باسم الله، وبروح الله، وبنور الله، نتوجه بالإيمان والموالاة طلبا للعبودية لمن عبده وولاه، وكان لنا به عين معناه فآمناه، وصدقناه، وأسلمنا أنفسنا وأرواحنا له ولمعناه.

في مثل هذه الأيام من كل عام يحتفل فريق من الناس من أهل هذه الأرض، بمن عرفوه اسما وذكرا محمد ابن عبد (الله) ابن آمنة (الله) بنت وهب (الله).. يحتفلون به على الصورة التي ترضيهم، وبالمعنى الذي يرتضيهم، يذكرون ما أسموه مزاياه وسجاياه، يذكرون له صفات وأوصاف ارتضوها، ويتحدثون عن أقوال وأفعال تلقوها أو شهدوها، وعنه عن آبائهم نقلوها...

على أن هذا هو كل ما يليق به عندهم، وكل ما يصح أن يعرِّفوه به بينهم...

وكل ما جعلوه له أو نعتوه به إنما هو ما شاركوه بقائمهم فيه، أو كانوا محلا لمعانيه، وقد جهلوا أنفسهم منه من الله كما جهلوه منهم من الله، فلم يصفوه إلا بما عرفوا عن أنفسهم، وما عرفوا عن

أنفسهم إلا أنها بعيدة عن الله وعن عبد الله وعن عباد الله، ولو أنهم عرفوا أنفسهم قريبة من الله لوصفوه بغير ما وصفوه، ولنعتوه بغير ما نعتوه، ولعرَّفوه بغير ما عرفوه.

إن ما نعتوه به وما وصفوه به وما ذكروه متصفا به أو مالكا له، ما كان إلا بعض ما وصفته به الجاهلية. فقد عرفته أمته في جاهليتها صادقا أمينا وما زال هؤلاء الذين يقولون أنهم آمنوا به وأسلموا له وتابعوه على دينه يصفونه بما وصفه به من جهلوه ومن أنكروه ومن خاصموه على أنه أهم مزاياه، فيقولون إنه الصادق الأمين مثلا، وما كان هذا الوصف يشاركه فيه الجاهليون بكثير منهم ليكفي لحملهم على الإيمان به أو الإسلام له، فلم يغنِ وصفه بالصادق الأمين من عرفه صادقا أمينا ليؤمن به وليسلم له، وليتابعه على ما جاء به، وقد نعت عنده من قبل الرسالة بالصادق الأمين، فما عرفه قومه في الجاهلية إلا صادقا ما كذبوه، وإلا أمينا ما استخانوه. ولكن وصفه هذا عندهم لم يكفِ لهم فيه أن يؤامنوه وعلى دينهم يأمنوه وعلى أنفسهم يأتمنوه فيتّبِعوه فيتْبعوه.

إنا ما زلنا نقول الصادق الأمين، على أن هذا ما يشرف به وخير أوصافه. إن الواجب في الإنسان أن يكون صادقا أمينا، فإذا اتصف محمد بالواجب الذي يقع على كل إنسان وما يحققه لنفسه أي عاقل، فما وجه تميزه في ذلك؟ وهل هذا كل ما أبرزه الله فيه وبعثه بيننا به؟ نعم هو الصادق الأمين وهذا من يسر قدوته، ولكن أين هو الفضل العظيم له من ربه؟ ما هو الخلق العظيم يصفه به ربه؟ كيف هو أول العابدين؟ وما هو الفتح المبين؟ وأين ومتى هو رحمته للعالمين؟

إن الله أبرز محمدا عبده، وذكره، وحقه، ووجهه، ويده، وقدمه، وإنسانه، وروحه، ليكون للناس فيه أسوة ما تأسوه، في ذكر سمعوه، أو خبر رددوه أو أسمعوه، أو فعل رأوه أو نقلوه، أو إليهم انتقل ممن أدركوه، فعرفوا ما كان منه، ورشدوا بما كان من حكمة ربه به فتأسوه واقتدوه.

إن محمد الله، أسوة بأثره وخبره، بحياته ومماته، وتاريخ حركاته، باسمه وذاته وذكرياته. إنه عبد الله الذي إذا ذكر ذكر الله. إن لفظ الله امتزج مع لفظ عبد فيه، فنسب العبد إلى الله حقه وخالقه وباريه، فذكر الله عند ذكر عبد الله، فكان حلقة وسطى وعروة وثقى بين الناس ورب الناس في الله. كان بذاته آدم رسالته من مرسله، وآدم إرساله من كتابه، وآدم استجابته من ربه، وآدم بشريته من أمته، وآدم ذاته من حقه. أرسله آدم ومرافقه من الأعلى آدم، فكان آدم نفسه، وآدم أهله، وآدم بيته، وآدم متابعيه، وآدم المسلمين له، وآدم المؤمنين به، وآدم الناس من آدم رب الناس أرسل إلى الناس، يتواجدون به أوادم الله، بمتابعة آدمه متجددا بينهم كلمات لله.

كان آدم إرساله، آدم ربه، هذا الذي فرض عليه القرآن، وفرض عليه مع فرضه له الارتداد به إلى قومه، بمزيد وعيه بما وهبه من سر الكوثر، فما أدت ذاته منه وظيفتها إلا تجددت له ذات بعين وظيفتها، بما أعطاه من سر التكاثر بنوعه ومعناه، فكلما فارق بذات تبدأ بمرتقاها عاملة بعملها ذات، تغزو النفوس وتحررها عن معناها إلى معناه، تصلها به لربه، وتنحرها عنها إليه من ربه، فتصبح به عبادا لربه، بعينه لعين ربه، كان ميتا فأحياه وأنزل عليه نوره فأبقاه يقوم ويتقلب في الساجدين. بالنور الذي أنزل معه، والنور الذي جعل له بالروح الذي بعث به من أمره.. يسمع به ويبصر، يسمع به من يسمع في الحكمة والطبيعة كلام الله، ويبصر به من يبصر في الناس والآفاق وجه الله، ويقرئ به من يقرأ في الوجود كتاب الله، ويقَوِّم به من يقوم في الناس منه سراج الله.

ولكن تمر القرون وتمر الليالي والأيام، والناس كلما مرت بهم الأزمان، وكلما بعث الله فيهم على رأس كل قرن في لمحات الزمان من يجدد لهم أمور دينهم به، ازدادوا بالمخاصمة في غيهم، وأبقوا على جاهليتهم من صلاتهم وصلواتهم للظلام، فأظلمت الدنيا من حولهم، وأظلمت بظلام فعلهم قلوبهم بين جوانحهم في مشكاة صدورهم.. لا تشرح لهم صدور، ولا تشرق بروح الله فيهم قلوب، فلم تنر بذكر الله كلمات أنفسهم، ولم تتطور باسم الله عوالم ذواتهم كعالم صغير لله نواة لعالم كبير في الله، {لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس}[1]. فما خلق السماوات والأرض إلا تطور الناس إلى معاني الكبر فيهم بمعناهم من ذواتهم.. والله أكبر. فما خلقت السموات والأرض من إنسان نشأتها إلا لإنسان وجودها وطلعتها، يشهدون أن لا إله إلا الله بكشف الغطاء عن غلاف نفوسهم من نار قدسه، مشرقة بنوره من نور هديه، متسعة بكرمه وجوده من عطاء رحمته، باقية بالحياة من قيوم حياته. خلق السموات بأيدٍ من الإنسان من الناس، وأنه في خلقه بأيدٍ له لموسع، ما اتخذ المضلين عضدا، وما أشهد المضلين خلق أنفسهم ولا خلق السموات والأرض، ولكنه أشهد العابدين له، العارفين به، القائمين بأمره، الذين ظهرهم فأظهروه، وقامهم فأقاموه، وشهدهم فأشهدوه، وعلمهم فعرَّفوه، أشهدهم خلق أنفسهم وأشهدهم خلق السموات والأرض، ولم يجعلهم أنفسهم ولكن جعل من أنفسهم لهم به عبيدا هم لهم في معانيهم من معناه بهم، وهم في أنانيتهم من أناه، وهم في أوانيهم لمعانيهم بيته ومبناه في موجوده من وجوده.

هذا جاء به محمد الله وعبد الله ورسول الله وأسوة الناس وقدوة الأجناس، فهل تذاكروه قومَه؟ وهل تعارفه أهله؟ وهل تواجد به بينهم بيته للناس؟ والناس جميعا في بيت فطرته، والناس في أزمانهم هو لهم قدوة، والناس في عصورهم كان هو لكافتهم أسوة.. رحمة للعالمين وربا رحيما بالعالمين، وعبدا لله، عبدا لله على ما عرف الله، وعلى ما عرَّف الله، بما عرف للملأ الأعلى، وتعارف عليه كما عرفه

رسول الله فيه، يُشهد فيه الله وجها لوجوه، ويتقلب في الساجدين بأمر الله وبسر الله وبنور الله وبقدرة الله. يعرفه الناس يوم يعرفون معنى الله، ويذكره الناس يوم يذكرون اسم الله، يد الله تظل الناس، ويد الله تقل الناس، ويد الله تقود الناس، ويد الله تهدي الناس، ويد الله تجتث الأشجار الخبيثة من بين الناس، يد الله القادرة، ويد الله الراحمة، ويد الله الهادية، ويد الله الباقية، ويد الله المتجددة الأبدية، ويد الله القديمة الأزلية.

بماذا تحدث الناس عن رسول الله قبل محمد الله؟ وبماذا تحدث الناس عن رسول الله بعد محمد الله؟ ما كان قبل محمد الله إلا محمد الله آدما للناس. وما كان بعد محمد الله إلا محمد الله آدما للأجناس. وما كان محمد الله بين الناس إلا آدم الله للناس. وصفوه خليل الرحمن ووصفوه حبيب الرحمن، وما عرفوه من الله، وما عرفوا من خالل، وما عرفوا من معه تحاب من قبل ظهوره ومن بعد ظهوره.

يقولون خليل الرحمن بألسنتهم وبأفواههم، لم يسكن في قلوبهم خلة الرحمن معنى، ولا تُعرف خلة الرحمن إلا في قيام خلته مع من كان له خليل، ولا تعرف محبة الرحمن إلا في محبته مع من كان له حبيب.. إن كنت خليلا لرسول الله عرفت كيف خالل رسول الله الرحمن وكيف خالل الرحمن رسول الله. إن كنت لرسول الله حبيب عرفت كيف أحب الرحمن رسول الله، وكيف أحب رسول الله الرحمن، كيف أحب رسول الرحمة ربه الرحيم، مظهرا لحب الله بعبده الكريم.

إن شهادة أن لا إله إلا الله تقتضي أن يشهد المشاهد لها، القائم بها بما عرف منها من قاموها وشهدوها، فقال قائلهم (ما في الجبة إلا الله)[٢] وقال قائمها (سبحاني ما أعظم شأني)[٣]. ولو أن هذا الداخل في حصن لا إله إلا الله شهد محمدا رسول الله، لشهد أن الله أكبر، على ما شهد أسوته وقدوته عبد الله ورسول الله، أن الله أكبر، ولقامت فيه العبودية للأكبر اسما وذكرا لله الذي هو منه أكبر، والذي هو به يظهر، وجها له وعبدا له.

إن الإسلام بني على شهادة في شهادتين وعلى أمر في أمرين.. شهادة أن لا إله إلا الله، يشهدها المؤمن بالله مع رسول الله فيشهد أن ما في الجلدة إلا الله عنده وعند رسول الله. فإذا قام رسول الله وكان رسول الله، وعلم ما علم رسول الله مما أعلم رسول الله، ومما اختار رسول الله لأهله، ومما احتفظ رسول الله به لنفسه، لشهد الله أكبر. ولو شهد أن الله أكبر لعلم أيضا أن رسول الله منه أكبر. ولو شهد أن الله أكبر وعلم أن رسول الله أكبر، لكان لهما في الأرض مظهر. فكان كلمة لله وعبدا لله وابنا لرسول الله، وثالث ثلاثة حقائق يجمعها الله، وتظهرها كل حقيقة منها بالله بيتا له ووحدة لأهله.

هذا كله جاء به محمد الله، وجاء به كتابه من الله كتابا له وبلاغا إلى الناس.. كتابا له وإعلاما له عن غيب نفسه، وبلاغا إلى الناس وإعلاما لهم عنهم، وإعلاما لهم عن بشراهم من الله لمآل غيب أنفسهم.

تنزه بمحمد الله ربه ورب الناس عن مفردات الناس في مقامه وفي إعلامه وفي قيامه، كما تنزه به ربه ورب الناس عن الجهل به، أقرب إلى الناس من حبل الوريد، ومن ورائهم محيط، وعلى كل نفس قائم ومعهم أينما كانوا معروفا لا مجهولا. يعرفونهم في معرفتهم أنفسهم، وفي معرفتهم أنفسهم يشهدونه واحدا أحدا آمنوه. ويجهلونهم في جهلهم عن أنفسهم وأمرهم من أمره بهم هو لهم ميسر، فيجهلونه أو يجحدونه.

إن الناس بقائم دينهم ما لبوه، ما أحبوه، ما آمنوه، ما وحدوه، وهو الذي جاءهم ببلاغ الله {وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون}[٤]. لقد جعل الله رشادهم في استجابتهم وإيمانهم، وجعل إجابتهم وتلبيتهم في طلبهم وسؤالهم لنبيهم. وأمر نبيه وعبده أن يُعَلِّم الناس كيف يطلبونه كلما سألوه، ووعده بإجابتهم على ما أجابه وكما أجاب من قبله، وأمره بأن لا يحول دونهم مفتونين به بما حباه من وسيلة دائمة لهم.. فإنه مجيب كل من طلبه عن طريق رسوله، هادي السبيل إلى الرسول لكل من جاهد فيه. فلِمَن يكون بعد ذلك الأنبياء وقد فتح الله بمحمد في دوام رسالته بجديد ذاته الباب لكافة النفوس بتحقيق الأمل لكل آمل وتحقيق الرجاء لكل راجي معرفته؟

فمن طلب أن يكون نبيا يحمل نبأ الله للناس، ونبأ ربه للناس، ونبأ رسوله للناس، ونبأ نفسه وتجاربها لنفوس الناس، فليطرق باب الله في مجتمعه لن يغيب أبدا - هو {الرحمن فاسأل به خبيرا}[٥] - وليسلك طريق الله مستقيمة أزلا، وليتابع رسول الله أو من تابع رسول الله على بصيرة، لا يغيب أبدا طريقا للرسول البصير في القانون القائم في {قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني}[٦] طريقا لا تنقطع أبدا. أهلها يدعون إلى من يدعو إليه الرسول على بصيرة، وهو فيهم دائما ببصيرته، يقومهم ويتقلب بالسجود لربه فيهم.

هذا هو محمد الله على ما أبرزه ربه، رب الناس رسولا من أنفسهم، الله من ورائه وورائهم محيط، رسولا إليهم منهم، يقول لهم ما قال له رسول ربه له أنا منكم وإليكم. أيها الناس: الحق لكم منكم وإليكم. أيها الناس: إنما هي أعمالكم ترد إليكم. أيها الناس: الهدى منكم وإليكم. أيها الناس: نصيبكم من الله منكم وإليكم.

أيها الناس: حقكم من الإنسان منكم وإليكم. أيها الناس: ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله. أيها الناس: لقد جعلكم الله برسول الله أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا، أيها الناس: لقد جعلكم الله برسول الله خير أمة أخرجت للناس.. ألستم به متابعي خير عبد أخرج للناس لخير أمة لله بين الناس؟ ألستم به في دين الله في دين محمد الله عبد الله ورسول الله، وأقرب الخلق إلى الله، وأعرف الخلق بالله، وأقوم الخلق للخلق في طريق الله! كيف لا تكونوا به خير أمة أخرجت للناس، وأنتم على دين القيمة الشهداء المصطفين، رسول الله عليهم شهيد؟!

هذا هو محمد الله على ما يليق أن نذكره أو أن نتواصاه، فنعرفه من قبل أن يتواجد معروفا لنا بمبناه، رسولا قديما في رسل الله، وبعد أن غاب عنا بأولية جديده لقديمه من حقي معناه ومبناه آدمان في آدم الله، نعرفه متكاثرا في أوادمنا بأوادمه، متكاثرا بوجوهه وجها لله ينظر إلينا متكاثرا بخلته، ومتكاثرا بمحبته، ومتكاثرا ببيته ومدينته، ومتكاثرا بأهله وأُمته، ومتكاثرا بعترة كتبه ومصابيح طلعته، ومتكاثرا بعبوديته عبادا لله لا انقطاع لهم بالحق يقومون وله يشهدون.

فهل عرفنا محمدا محمدا لله، فعرفنا في معرفته الله، وطلبنا في طلبه الله، وقمنا في القيام به قياما لله، وجاهدنا في طلبه والبحث عنه بين جوانحنا وبين عوالمنا وبين أهل بيئتنا، وفي علمنا وفي كل ما نعلم عن الله، نرى فيه فيض الله وهدي الله؟

هذا ما يليق بنا أن نذكر به عبد الله ورسول الله، من كان لنا قدوة وجعل الله فيه لنا أسوة. نشهد أن لا إله إلا الله ونشهد أن محمدا رسول الله وعبد الله وحق الله ووجه الله ودوام ظهور الله ودوام غيب الله.

اللهم حمدنا بحمدك. وعبدنا بعبدك. وأنرنا قلوبا بمصباح علمك. وأوصلنا بطريق وصلتك. وخذ بنواصينا إلى الخير به يدا لك، ورحمة منك. اللهم ألحقنا به مغفورين، وألحقنا به محمديين محمدين، وألحقنا به لك حامدين. اللهم عرفنا إياه معرفة نشهد بها مُحياه، وأقمنا بك محياه حتى نشهدك عين معناه. اللهم أَدخلنا به حصن لا إله إلا الله، وأقمنا به بلا إله إلا الله، وأكملنا به وكبرنا فيه حتى نشهد أن محمدا رسول الله، وحتى نشهد أن الله أكبر. اللهم كن لنا في الصغير والكبير من شأننا، وفي كل أمر به فتولَنا، واجعل اللهم خير أعمالنا خواتيمها، وخير أيامنا يوم لقائه ولقائك. اللهم أصلح أمرنا حكاما ومحكومين، روادا ومرودين، مجتهدين ومتابعين، يقظين وغافلين، وكن لنا رحمة يا رب العالمين، وعافنا من إقامة عدلك وعاملنا بجودك وعفوك.

أضواء على الطريق

- {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته}[٧]- هل الأمر بالإيمان بالرسول موقوت بفترة ظهوره بذات التبليغ؟ وهل نفاذ أمر الله موقوت بحياة الرسول بذات البلاغ؟ - أم هل يطلب الله من الناس الإيمان بالرسول كذات من ذوات التاريخ كنابليون وهولاكو مثلا؟ أم هل المطلوب منهم في معنى الإيمان به أن يلوكوا بألسنتهم اسمه ونعته وليس له موضع من قلوبهم وليس له واقع في مجتمعهم؟ فليتأمل الناس أمرهم وأمر ربهم.
- {قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني}[٨] فهل انقطع الداعي من بعده؟ وهل الداعي المتابع على بصيرة يخرج نفسه للناس بإرادته والكتاب يقول {الله أعلم حيث يجعل رسالته}[٩] كما يقول {إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون}[١٠]؟ والرسول إذ يظهر بينهم الروح جبريل، يقول لقومه هذا أخي جبريل جاء يعلمكم دينكم.. أيصبح مستحيلا بعد ذلك الاتصال بالروح والعلم عنه، وإخراجه للدعاة؟ هل الداعي المتابع على بصيرة يأخذ هذا الوصف من البصيرة وهو بعيد عما تحقق به الرسول من الصلة اليقينية بربه والاتصال الدائم به، والرسول يقول علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل، والقوم يقولون الشيخ جبريل المريد، والرسول يقول من كنت مولاه فعلي مولاه؟
- هو {الرحمن فاسأل به خبيرا}[١١] هل أَمر الله الناس بالالتجاء إلى خبير لا وجود له في طبيعة حياتهم، أم يعني أقوال منقولة عن خبير عرفه أهل عصره بهذا الوصف ضالين أو مهتدين؟ ومن يكون الخبير بالرحمن غير عباده يمشون على الأرض هونا، يعرفهم ويعرفونه، ويصلهم ويصلونه على بصيرة، لا ينقطع لهم وجود برحمة، ولا تواجد بمجاهدة، يخرج قديمهم جديدهم، ويعرف عنه عند عارفيه في تتابع ودوام؟

مصادر التوثيق والتحقيق

١ سورة غافر - ٥٧
٢ مقولة للحلاج.
٣ مقولة لأبي يزيد البسطامي: (سبحاني سبحاني ما أعظم شأني).
٤ سورة البقرة - ١٨٦
٥ سورة الفرقان - ٥٩
٦ سورة يوسف - ١٠٨
٧ سورة الحديد - ٢٨
٨ سورة يوسف - ١٠٨

٩ سورة الأنعام - ١٢٤

١٠ سورة يوسف - ٨٧

١١ سورة الفرقان - ٥٩